مربع نور

مارك حداد*

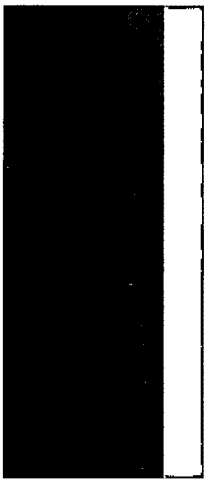

المثليون حملوا علمهم وشاركوا في مظاهرة المتحف

شارك عشرةُ مثليين في المظاهرة التي انطلقتْ من منطقة المتحف حاملين علمهم العالمي: علمَ قوس قزح. وهذه هي المرة الاولى التي يشارك المثليون في بيروت بحدث كهذا، معلنين هويتهم أمام الملإ. أحدهم قال في حديثٍ مع النهار، «نحن احرار» ولم يوافق على الحديث إلا بعد الموافقة بأن لا ينعتوا بالمنحرفين.

- لماذا تشاركون اليوم في هذه المظاهرة؟

- نحن نرفض الحربَ وكلَّ أنواع العنف، ولا نؤيد الديكتاتوريات.

- ألا تخافون من أن يتعرّض لكم أحد؟

- كلا، فنحن لنا الحقُّ في الوجود وعيش هويتنا مثل الجميع.

النهار، ١٦ آذار ٢٠٠٢، الصفحة ٤.

- ١ -

ينيرُ ضوءُ الشمس الغرفةَ الصغيرةَ في أحد أبنية بيروت القديمة، ويَرْسم مربَّعًا من نورٍ على أرضها. يجلس الستةُ من حولِه، ويبقى كرسيٌّ سابعٌ في انتظار المجهول. ينساب النسيمُ بينهم مُحَمَّلاً برائحة الياسمينة التي احتضنت النافذة، ويخيِّم الصمتُ المريضُ عليهم، كالصمت في غرفِ انتظارِ المستشفيات.

فجأةً... يدخلُ طيرٌ صغير. يَجْفلون، وتَشْخص عيونُهم صوبه بخوفٍ وعدائية. يتبادلون نظرات الاستفسار السريعة. لكنّهم يكتشفون أنه مجرد طائر، لا يهدّدهم وجودُه. تهدأ أنفاسهم. يبتسم ياسر الذي التصق بالحائط المواجِه للنافذة حين دخل الطير. يقترب منه بحبّ، ويَرْكع على ركبته مادّاً يدَه صوبَه.

يراقبونهما.

يغرِّد العصفور مرتين ويقفز مرتين، ويغادر على عجل. يَنْهض ياسر لاحقًا به صوب النافذة بلهفة، ويَشْهق بصوت خفيف كأنه يقول له «لا تتركْني هنا وحيدًا. خذني معك!»

يسود السكونُ مجددًا.

كاد هذا اليوم أن يكون عاديّاً، وكادت تلك المظاهرة أن تمرَّ بسلام. كاد مربَّعُ النُّور على أرض الغرفة الصغيرة أن يغادرها طبيعيّاً، معلنًا غيابَ شمسٍ آخرَ. ولكنّ رمل الزمن توقّفَ عن الانزلاق وتعلّقت حُبَيْباتُه في الفضاء. أصبحت الثواني دقائقَ، والدقائقُ ساعاتٍ، والانتظارُ - كالخشب - يزيد نارَ القلق الذي يوسّخ هبابُه وجوهَهم بألوانٍ رماديةٍ شاحبة.

تبتعد زقزقةُ عصافير المدينة هامسةً بالأمل.

- مِش رَح يخْلَص هَا النّهار عَ خَير...

يَهْمِس مارك في أُذن سنا بكلماتٍ ترتعش، فتشدّ على يده مشجِّعةً، فتنتقل إليه كهاربُ خوفها السريّ. يدقُّ قلبه أسرعَ، ويحسّ بحرارةٍ شريريةٍ ترتفع من صدره إلى وجهه وأذنيْه. يُفلِت يدَه من قبضتها التي بدأتْ تُوجِعه من ضغطها المتزايد. يضع رجليْه على الكرسي، ويختضن ركبتيْه، ويَخْفض رأسَه بينهما.

---

* - كاتب شابٌّ من لبنان. وهو اسمٌ مستعار. (الآداب)

منذ سنتين اختلطتْ أفكارُ مارك بأزرقِ الحبر وأبيضِ الورق ورائحةِ الكتب، فكَتَبَ عشراتِ القصص القصيرة التي التصقتْ بحلم المئات ورَوَتْ معاناتَهم وفرحَهم. كتب كلَّ الحبِ الذي لم يستطع يومًا أن يَبُوح به لأيٍّ كان. كَتَب ليُفْرِغ كلَّ الحقد والقهر على الورق.

تستعيد سنا رباطةَ جأشها. تأخذ نَفَسًا عميقًا. تمدّ يدَها ببطء نحوه وهي تميل بجسدها لتحتضنه. تمرِّر أصابعَها بين خصلات شعره الطويل الأسود الفاحم وتداعبه بحنان.

ـ ما تْخَفِش.. وفَكِّرْ إنُّو إذا إحْنَا صَرلْنَا إشي، في غيرنا راح يِقْدَر يعيش أحسَنْ وبكرامة أكثر.

تحرِّر جملةُ سنا هذه دمعةً حاول مارك اعتقالَها لدقائق، فتفرّ من سجنِ مقلته مُشْبعةً بالخوف على أهله من هول الفضيحة وخيبة الأمل. يفكِّر:

سينام العارُ على سريري ويَرْتع في زوايا منزلٍ طَردني منه. سيتحكّم بأهلي ويُجْبرهم على كرهي. يجب على أهلي أن يقاتلوه، وبشراسة؛ فحربُهم ليست سهلة، ولن تكون ضدَّ ما آمنوا به منذ أجيالٍ فحسب، بل ضدَّ مجتمع برُمَّته.

ماذا سيحصل لي إذا دخلتُ السجن؟ كيف سأُكْمل حياتي بعد خروجي؟ هل سأتحمّل كل هذا؟ لماذا شاركتُ في تلك المظاهرة السخيفة؟ ولكنْ إذا لم أكن أنا مِنَ بين البادئين، فمن سيكون؟!

يَمْسح مارك دموعَه. يعدِّل جلستَه. ينظر في عينيْ سنا ويَهْمس كي لا يشوِّش سكونَ الغرفة:

ـ قَوْلِكْ، إذا بقينا هون، وتركناهم يكمشونا، رح نقْدر نغيِّر شي؟

ـ ولَكْ أكيد، حبيبي. إحنا ما عْمِلْنَاش إشِي غَلَطْ...إحنا وقفنا مثلنا مثل الكُلّ ضدّ الحرب على العراق. ما إلْهُمُش الحق إنو يِمسِكونا.. طمِّنْ بَالك يا خُوي.

ـ بس نحن كنا حاملين عَلَم قوس قزح.

ـ قوس قزح ولاّ غيرو يا خوي.. فِكْرَكْ راح يِعرِفوا شو مِعْناتها هالألوان؟ طمِّنْ بالك، بيقدَروش يِعمَلوا إشي ماعانا.

يبتسم لها مارك نصفَ ابتسامة. يذكِّرُهُ تطمينُها له بأمّه. يستدرك فجأةً أنّ أمه وحيدةٌ في المنزل؛ فوالده يعمل ليلاً وإخوته في بيروت. يَصْرخ وهو يَنْظر صوب سلمان:

ـ لازم دقّ لنادية لتكون حدّ إمّي، إذا أنا صَرْلي شي.

يعطيه سلمان الخَلَوي بنخوةِ أهالي الجبل ويمازحه علَّه يَنْجح في سرقة ابتسامةٍ من شفتيه:

ـ عاملِتلِك سَنترَليسْت أنا؟! خِدِي إحكي. اليوم ببلاش، بُكْرا بمصاري.

ـ ٢ ـ

يغيب الأبُ عن حياة ابنه سلمان وتستشرس الأُم في حماية ولدها، ناقلةً إيَّاه من ملجإٍ إلى آخر، ومن قريةٍ إلى أخرى. تُشَلِّع الحربُ استقرارَه، وترميه جثةً هشّةً على حدود الجاه. يلملم أشلاءَه بعد الحرب ويَجْمعها، محاولاً بناءَ شخصية مستقلة عن كلِّ ما آمن به أهلُه. فيغدو كريمًا كثيرَ المزاح والابتسام، لكنّه معرَّضٌ لنوباتِ قلق تُتَرجَم سكوتًا مفاجئًا، فيَشْرد مفكِّرًا في عبثية الحياة والموت ومعنى الإنسانية والظلم. وحين يشعر بأنّ هناك مَنْ يراقبه، يبتسم، ثم يضحك بهستيرية ويخبرك عن أكثر المواقف إحراجًا في تاريخ عائلته.

انضمّ سلمان إلى «المجموعة» منذ سنة، وأقْنع الجميعَ بأنّ سببَ عمله في مجموعةٍ تناضل لتحرير المثليين في لبنان هو النشوةُ من هذه المغامرة المجنونة ـ وهو صاحبُ المغامرات الأكثر جنونًا. يبتسم سلمان بخبثٍ حين يصدِّق سامعوه أسبابَه الواهية. ثم تَشْرد أفكارُه بغضبٍ حزينٍ حين يتذكر تلك الليلة التي حفرتْ في ذاكرته قهرًا، وعلى وجهه ندبةً.

ـ خلّونا نربطّ هالمخنَّث بالسيّارة من ورا ونجرّوا بالشارع، بَلْكي بيتعلّم يصير رجّال.

لم يصدِّقْ سلمان ما سمع. لم يستوعبْ أنّ شباب الحيّ، أصدقاءَ طفولته، يتحدّثون عنه. تختفي الابتسامةُ عن شفتيْه وتَجْمد يدُه التي كانت ممدودةً صوبَهم للسلام عليهم.

ـ يا شباب، شو القصة؟

ـ القصة، يا مَنْيَكْ، إنّو شافوك عم تِنْمِحِنْ على شباب بالأسيد[1] نهار السبت.

يَنْطق أحدُهم بهذه الجملة ويتقدم الثلاثةُ صوبه خطوتيْن. يتراجع سلمان خطوةً، ويَنْظر نحو إبراهيم متوسِّلاً: أوَليس هو صديقَه الأقرب؟

ـ إبراهيم...

يَصْرخ سلمان بذلك الاسم وهو مليء بالأمل.

ـ إكمشوه.

ـ إبراهيم...

يَصْرخ سلمان بذلك الاسم، ولكنْ هذه المرة لومًا وكرهًا. يَكْمشه اثنان منهم، ويُخرِج الثالثُ حبلاً من سيارته ويبدأ برميه حول عنق سلمان، الذي ينتفض صارخًا وضاربًا في محاولة يائسة للنجاة بحياته. لم يعد سلمان يتذكر مَنْ ضربه، ومَنْ شتمه، ومَنْ ربطه بالسيارة. كلُّ ما يتذكره هو الوجعُ في حنجرته مع كلِّ صرخةٍ يُطْلقها.

يلتمّ الدركُ على صوت الخناق ويقتادون الأربعةَ إلى مركز الشرطة.

ـ واحد لُوطي بدّو ذبح.

يَصْرخ إبراهيم موجِّهًا حديثَه إلى ضابط التحقيق، باصقًا على وجه سلمان، الذي تختلِطُ دموعُه بالدمِ النازفِ من خدِه الأيسر.

يبتسم سلمان له باستهزاء. ويفكّر: أنا مثليّ... وإبراهيم شاذّ! فأنا أعيش مقتنعًا بما أنا عليه وفخور بمثليتي. لا أخاف من حالي، ولا أعاقِبُ الآخرَ على ما لم أُحسِنْ تقبُّلَه في نفسي، ولا أغار ممن يعيش في سلام. وأما إبراهيم... فشاذّ.

بعد يوميْن من الاستجواب تمّ إطلاقُ سراح الثلاثة، واستُبقِيَ سلمان لاستكمال التحقيق معه حول ميوله الجنسية ولعرضه على الطبيب الشرعي.

تحمَّل سلمان كلَّ هذه الاستباحة بسكوتٍ مُرٍّ واستسلامٍ حارق. فقد فَقَدَ إيمانَه بكلّ شيء، ولم يعد يبالي بتعليقات رجالِ الشرطةِ والمساجين.

في الليلةِ الأخيرةِ لاعتقاله اقترب منه أحدُ المساجين في عتم الزنزانة وكَمَشَ عضوَه وخصيتيْه، هامسًا في أذنه وهو يَلْحسها:

ـ أنا رَحْ عَلْمَكْ كيف بيستعملوا الايـ...

واغتصبه.

ـ ٣ ـ

يَطْلب مارك رقمَ نادية بحركات مضطربة ويصلّي أن تردّ. يرنّ الهاتف. توت... توت... توت... توت... لا جواب. يلعن أُختَ الهاتف، وتلفُّه عباءةُ الخوفِ السوداء. يعيد طلبَ رقم نادية بارتباك وعنف. توت... توت...

ـ آلو.

---

١ ـ Acid: مَرْبع ليلي للمثليين جنسيًا في منطقة سنّ الفيل.

ـ آلو نادية... بشكر الربّ إنُّو لقيتِكْ.

ـ تُقبر قلبي إنْ شاالله.. شو باكْ؟

ـ نْزَلِي لعنّا عالبيت، وخلّيكي حَدّ الماما.

ـ مارك، وينك؟ شو في؟ شغلتلي بالي!

ـ ما فيّي إحكي. يمكن الخطّ مراقَب..... باي.

ـ مارك!

ـ نادية، عَمْ وصّيكي بإمّي، أُوعا تتركيَا وَحْدا...أُوعا تخلّيها تبكي. باي.

يُقفل مارك الخط وينخرط في بكاءٍ حارّ من غير صوت. يَرْكع ياسر أمامه، ويُمْسك صدغيْه براحتيْه وهو يتنهنه:

ـ پليز حبيبي، ما تبكي. پليز حبيبي خلص. كرْمالي پليز.

ـ خلّونا نفِلّ، يقول مارك.

يردّ سلمان:

ـ ولِك على شو خايفانة؟ ما الحبس للرجال... بلكي بتطلعيلِكْ بُكرا بشي واحد.

ـ أنا مش جابرْ حدا يضلّ، بس أنا مش فالِلْ، يقول عامر بوقاره المعهود.

ـ كُلّياتنا راح نضلّ هون، منتركش هالغُرْفة.

تهدأ أعصابُ مارك قليلاً ويعود إلى ذكرياته، فيتخيل أمَّه وهي تغني له «ضاع شادي،» ويتذكر رحلتَه مع نادية.

نادية، البنتُ الريفية البسيطة، بنتُ قريته التي أحبَّته من دون مقابل. أحبَّته بصمت وعن بعد. حافظتْ على مسافةٍ تكفيها لتساندَه وتحِسَّ بجسده، من دون أن تُشعِرَه بالاختناق من وجودها. أحبّتْه بالرغم من هربه الذي بدأ عندما عَرف بعشقها له. عَرفتْ نادية كيف تقدِّر الإنسانَ داخل مارك، بالرغم من جفائه وغموضه. فكانت تربِّت على كتفه قائلة:

ـ مارك، إنتَ إنسان منيح.

نادية تلك الفتاة التي صَدَمَها اعترافُه لها بأنه مثليّ، فعضَّت على الجرح بصمت، وسالت دموعُها على حلمٍ تحطَّم بصمت، وحاولت النومَ معه علّه يستقيم، ودَفَنَتْ أملاً مات بصمت.

نادية تناستْ ألمها ووقفتْ مصمِّمَةً على تقبّلِ مَنْ تحبّ كما هو، وعلى فَهْمِ تلك الشخصية التي طالما أثارتْ حشريتَها. هنا بدأتْ تتقبل اختلافَها وتَفْهم جسدَها.

نادية كَسَرَتْ جدرانَ التقاليد التي سَوّرَتْ حياتَها بالعيبِ والممنوع، لتكتشفَ جسدَها الذي كان غريبًا عنها ومزنَّرًا بالعورات والمحرَّمات. وقفتْ أمام المرآة عاريةً. أزاحت يدَها اليسرى عن نهديْها الصغيرين بتردد، ويدَها اليمنى عن فرجها بخجل. وقفتْ أمام المرآة لتكتشف كم هي جميلة. لقد علَّمها مارك، بتقبُّله لمثليته، كيف تحبّ نفسَها وكيف تقتل خَجَلَها من كونها أنثى، وكيف تَسْبح من قعر الدونية صوب السطح ـ صوب النور والهواء. علّمَها كيف تُحِبّ وتُحَبّ.

نادية، المحامية، ساندتْ حلمَ المثليين في لبنان، ودافعتْ عن حقوقهم في المحاكم وفي دراستها وكتابتها. فقد رأت أنّ تحرُّرَ المثليين وتحرُّرَ المرأة لن يتمّا من غير تحرير العقلية اللبنانية من المفاهيم المخجلة، كجرائم الشرف ومفهوم العيب وغيرها. وعَرفتْ أنّ حربها ستكون ضاريةً وموجعة في مجتمع لم يكفّ سوسُ الذكورية المريضة عن نخر عظامه، فكتبتْ تقول: «لا حريةَ للمثليين منفصلةً عن حريّة المرأة، ولا حريةَ للمرأة بعيدةً عن حرية المثليين.»

- ٤ -

يَسُود الصمتُ الثقيلُ مجددًا، كالصمت بين نهايةِ المجزرة والصرخةِ الأولى للناجي الوحيد. تبكي أوراقُ الياسمينة حين يصفعها النسيمُ، ممزِّقًا قشرةَ الأمان التي التحف بها الستةُ. يزحف مربّعُ النور على أرض الغرفة الصغيرة بعيدًا عن النافذة. ينزلق صوتُ أحدهم يغنّي متحدِّيًا ساديّةَ السكون: «لو لاقاكم حبيبي سلِّمولي عليه / طَمّنوني الأسمراني عاملة إيه الغربة فيه...»

يتمايل ياسر، أصغرُهم، وهو يغنّي، بحركاتِ رقصٍ شرقيةٍ محترفة. يغنّي بعذوبةٍ وفرح. ويجرّه الحنينُ إلى ماضٍ سحيق، إلى ثماني سنوات خلت. يكلِّم نفسه:

لا أريد أن أكبرَ. أريد أن أعود طفلاً، وأن أَصْغر يومًا مع بدايةِ كلّ يوم. يختفي الشعرُ عن وجهي. يعود شعري أشقر. أعود عفويّاً لا أُحاسَب. أعودُ أقصر. يَحْضنني كمال الناطور. الحبّ كلّ الحبّ. أَنزلُ إلى البيت. يعود إلى مصر...

- ٥ -

يتوقف جورج عن المشي ذهابًا وإيابًا في الغرفة الصغيرة، ويَنْظر إلى ضحكة ياسر وعينيه المغمضتيْن، فتمرّ صُوَرُ حسين أمامه.

«كل شيءٍ جميلٍ يذكّرني بحسين،» يقول جورج لنفسه. ويسهو نظرُه صوب النافذة، والسيجارةُ في يده لا تُطفأ.

يسكت ياسر قليلاً وتَشْرد أفكارُه. يَقْطع سكوتُ ياسر حبلَ أفكارِ جورج، فينظر صوبه ليراه يداعب بسبَّابته شفتيْه لتتّسعَ ابتسامتُه رويدًا رويدًا.

«ماذا يفكر يا ترى؟» يسأل جورج نفسَه فرحًا بابتسامة ياسر.

يعود ياسر إلى الغناء بصوتٍ أعلى، وإلى الرقص بشكلٍ أعنف. يصرخ مارك بهستيرية، والزبدُ يتطاير من فمه:

- إنّو مِنْ كِلْ عَقْلَكْ عَمْ ترقص وتغنّي؟ شو بلا إحساس؟ مش حاسِسْ إنّو أعصابنا اهترت؟ خلّصْنا بَقا!

- مارك رُوقْ، يَنْهره عامر بصوته الوقور.

- ما بدي روق.. ما عاد فيّي إتحمّل.. خلّيهم يجوا ويخلّصونا!

- روق، يصرخ عامر بمارك، بحزمٍ أكبر وصوتٍ أعلى.

- ولْكُم، شويّ شويّ على الولد، إيش مالكُم؟ تصرخ سنا. تحتضن مارك، فيرتجف بين أحضانها. تنظر إلى ياسر الذي انكمش على الحائط المواجه للنافذة كأنّها تَطْلب منه المغفرةَ لمارك. فيهزّ لها رأسَه مسامحًا. يلتصق مربّعُ النور بالحائط عند أقدامِ ياسر. صمتٌ آخر.

تُقبّل سنا شعرَ مارك الطويل. يَحُوك الغضبُ جدائلَ أعصابها فتشدّ أسنانَها بعضَها على بعض. تتذكّر:

قصصتُ ارتباطي بالعادات والتقاليد حين قصصتُ شعري. كان ذلك في أيلول الماضي.

كم أكره أيلول! لا أذكر مرّةً مرّ فيها أيلولُ مسالمًا، حتى من قَبْلِ ولادتي التي جاءت في ذلك الشهر نفسه. يومَها لَطَمتْ أمي وجهَها وصَرَخَتْ بالقابلة ونساءِ مخيّم صبرا، حتى قبل خروج خلاصي:

- يا ويلي، أُجُتْلُوها، طُمُّوها، وَدْروها. ما تخلُّوش أبو محمّد يدْري إنّو خَلَفي بنات... عم بَالْكُم ودْروها ليش عم تعطوني ياها؟ ودروها. بدّيش أنْظُرها.

أسمعُ تلك القصّةَ مرارًا وتكرارًا حين تتندّر زائراتُ منزلنا بها، فأَهْرب الى المقابر القريبة خوفًا من أمي، وأدرِّب نفسي على أن أكون أقوى منها إذا هي حاولتْ قتلي. لعلها ستسمّم أكلي، أو تذبحني كما ذُبح أخي الوحيدُ في أيلول ١٩٨٢ خلال مجازر صبرا وشاتيلا أمام عينيها. ومنْ يومها فُرِضَ عليّ أن أكون الذَّكرَ البديلَ.

تغزوني هذه المخاوفُ مع بدايةِ كلّ أيلول، مع بداية البرد ومشاكل المطر المتسلِّل من شقوق حائط منزلنا، مع بدايةِ همِّ المدرسة، وثِقَلِ اختفاء الضوء السريع في عزّ النهار. ويكثر الحديثُ عن أحداث الأردن عامَ ١٩٧٠ والهجرةِ على الأقدام إلى لبنان.

في أيلول تخنقني ثيابي السوداءُ في ذكرى استشهاد أخي، ويَكْبر خوفي من أمي.

يأتي عيدُ مولدي الذي يمرّ حزينًا كلَّ عام، وأمي لم تقتلني بعد.

في ذلك اليوم من أيلول، تَطْلب مني أمي أن أُبرز نفسي للعريس القادم من مخيَّم البدّاوي خصِّيصًا للتعرف إليَّ، بعد أن أقنعتْه خالتي المتزوجة هناك بأنه لن يجد عروسًا مطيعةً ومهذبةً مثلي. لم تجرؤ خالتي أن تقول له عني إنني جميلة أو ناعمة. تَغْمز لي أمي لأصفِّف شعري العبثيّ وأَلْبسَ ما يَليق بفتاةٍ في عمري، فأواجهها بكل الغضب التي أخفيتُه سنوات: «لماذا تريدوني أن أكون فتاةً الآن؟ هل تعبتم من كوني صبيَّ البيت؟»

يرنّ صوتُ أمي الغاضبُ في رأسي.

ـ سنا، أُسْكُتي.

صوت أمي المذهول لا يُمَيَّز بين أصوات تكسير الأثاث والأواني.

ـ شو مالِك، ولِي سنا. عم تِتْخَوَنِّي؟

تتفجّر موجةُ غضبي الدفين. أنا لم أُخرجْ آدم من الجنة. لماذا تريدني أمي الآن أن أكون المرأةَ؟ ينتشر الخوفُ في عقلي كالسرطان. أَعْرف أنّني مختلفة، ولا أمتّ إلى مَنْ أعيش معهم بِصِلة. لن أسكتَ بعد اليوم!

يستمرّ طوفانُ غضبي مدمِّرًا في المنزل.

ـ إيش عم تِعملي ولِي... جَنِّيتي؟

أردّ على جملة أمي تلك برمي إناءٍ على مرآة الردهة فتنكسر. أَهربُ إلى الحمّام، حيث أستَلّ مقصّاً وأجتزّ من رأسي كلَّ ما يعتقدونه جميلاً، وأُكمِل على ما تبقّى بشفرة. أجلس على أرض الحمّام فوق شعري، وأُزيح ما بقي منه عن وجهي بتعب. أَنْهض على مهلٍ لأغسل وجهي وأتأمله. أخرج الى الصالون وأمي تُرغي وتُزْبد. تراني. تَسْكت وتُصعق. لا تكلمني.

لن تزوِّجني الآن. عليها الانتظارُ على الأقل حتى يطولَ شعري مجدّدًا... شعري الذي أُبقيه قصيرًا بشفرة!

ـ ٦ ـ

تحتضن سنا مارك، فيرتجف بين أحضانها، ويشتاق إلى الحنان في حضن أمه.

ـ لماذا تبكي كلّما احتضنتْكَ أمُّك؟

تسألني نادية ببساطة، ونحن نأكل الدجاج عند «بربر.»

تنظر إليّ بهبل وتنتظر جوابي. لا أجاوبها. تَشْعر بالإحراج الذي سبّبْته، فتغادر بهدوء. ولكنّ حياتي لا تعود ذاتَها؛ فقد كنتُ أعتقد أنّ كلّ الناس تحتضنهم والداتُهم فيبكون. ولكنّ سؤالها أشعرني بغرابةِ ما أُحسّ به تجاه أمي. توقفتُ عن السماح لأمي بعناقي بعد تلك الحادثة، وابتعدتُ عنها رويدًا رويدًا. استغربتْ تصرفاتي تلك وراحت تَنْظر إليّ بعيونٍ حزينةٍ كأنّها تسألني إنْ كنتُ لا أزال أحبّها وأحتاج إليها في حياتي.

أخجل. نعم أخجل. لذلك أبكي كلما احتضنتي.

أمي تحبّني. هي الوحيدة التي تحبّني من دون مقابل. لا تسأل لماذا لا أتصل أو لماذا لا أُفرغ لها وقتي كلَّه. هي الوحيدة التي تَدْفعني عنها لأكبرَ وأصيرَ طبيبًا «قدّ الدني.»

يومَ فشلي في امتحان الدخول إلى الجامعة الأميركية في بيروت انهارت وهي تَلُومني على تخييبِ أملها: «واحد فاشل. صايع ضايع. لأ... الحق مش عليك، أنا الفاشلة!»

لم يؤلمني فشلي بقدْرِ ما آلمني ما سبّبتُه لها من ألم. يومَها، وقفتُ مكسورًا أمامها أقاوم ابتسامةً تكاد أن تَظْهر. غمرتني سعادةٌ عميقةٌ؛ فأنا أخاف من الدم ولا أحتمل رؤيةَ مريض.

عندما أخبرتُ أمي بأنّي دخلتُ كليّة الآداب، قسمَ الأدب العربي، زمّتْ شفتيْها بحقد ولم تكلّمني، بل حَبستْ نفسَها كلَّ النهار في غرفتها. لم تتغير كثيرًا معي من يومها، ولكنّي أصبحتُ أبكي كلّما احتضنتني؛ فأنا لا أحتمل أن تعاني أمي القهرَ نفسَه عندما تَعْلم أنّي مثليّ، فأقفَ أمامها مكسورًا أقاومُ الابتسام.

أتخيّلها الآن تنتظر رجوعي، محاولةً أن تُلْهي نفسَها بأعمال المنزل، علّها تنسى قلقَها الذي يَزْحف إليها مع كلّ دقيقة أتأخّرها. تَحْمل كتابًا لتقرأه وهي تتمدد على الكنبة؛ هكذا تفعل فاتن حمامة في فيلم «إمبرطورية ميم» وهي تنتظر ولدها، وحين يعود تكلِّمه بكل رقيّ. لكنّ أمي تكره القراءةَ، فتضع الكتابَ جانبًا، وتُشْعل التلفاز. تقلِّب قليلاً بين المحطّات وتفتّش عن فيلم مصريّ يسلّيها. تخرج إلى الشرفة، وهي تَفْرك يديْها بعصبية؛ فليس من عادتي التأخّرُ إلى هذا الوقت. تمدّ رقبتَها وتميل بجسدها القصير فوق حافة الشرفة لترى أولَ الشارع، علّها تسرق من فكّ الزمن لحظاتٍ من راحة البال. عبثًا.

تدخل إلى الصالون وتَرْكع أمام تمثال العذراء. تَحْمل مسبحتَها، وتصلّي الورديةَ بصوت مسموع: «أبانا الذي في السموات، فليتقدّسِ اسْمُكَ وليأتِ ملكوتُكَ، ولتكنْ مشيئتُكَ كما في السماء كذلك على الأرض...» تكمل صلاتَها في نفسها.

يَصلها خبرُ القبض عليّ. تنهار باكيةً بين يديْ نادية، غيرَ مصدِّقة. تَلْعن العارَ، وتَلْعن الزمنَ، وتَلْعنني. تبكي خوفًا عليَّ، وخوفًا من مُواجهة أبي وإخوتي بقصتي. تنظر صوب العذراء وهي تبكي وتلومها: «هيك يلي بيوصّيكي بولادوا؟»

فجأةً يسيطر عليها الغضبُ عندما تتخيّلني أُستباح على أيدي رجال، فتقوم مِنْ على الأرض وهي تعضّ اللحمَ بين رسغها وإبهامها كالمجانين، وتركض صوب صورةِ تخرُّجي وتَبْصق عليها: «ولَك تفه... تفه عليك يا بلا شرف.» ثم تَحْملها وتقرِّبها إلى صدرها، وتمسحها وتَرْفعُها إلى وجهها، وتقبّلها بغصةٍ باكية، وتقول بحنان: «واحد فاشل... صايع ضايع!»

ـ ٧ ـ

ـ ناولْني سيجارة.

يطلبُ عامر سيجارةً من جورج الذي لم يكفّ عن الذهاب والإياب على أرض الغرفة الصغيرة، والسيجارةُ في يده لا تطفأ.

ـ وَلاااااي ذَبحتوا عِنيّنا بهالدخّان.

يبدأ مربّعُ النور بتسلّق الحائط.

أَحَبَّ جورج فرحَ بيروت حتى الجنون، ورَفَضَ عشرات العروض للعمل في الخارج، ليكون قريبًا من بيروت في فترة نقاهتها، ولكي يَرْسم خطوطَها الجديدة، ماحيًا آثارَ الحرب عن واجهاتها.

حبُّه لبيروت لا يعادله إلاّ حبُّه لحسين.

يتذكّر جورج أولَ لقاء له بحسين منذ ثلاث عشرة سنة، حين كان جورج في الخامسة والعشرين وحسين لم يتجاوز العشرين من عمره. كان ذلك يومَ خرجتْ عينُ الرمّانة لملاقاة الشيّاح، بعد حربٍ ضروسٍ أَبعدتِ الأهلَ والأصدقاءَ بعضَهم عن بعض أكثر من خمسة عشر

عامًا. في ذلك اليوم، في سوق الجمّال، في الشياح:

ـ ولِك هيدي إنتِ يا إمّ علي.... عطيني راسِكْ بوسو.

ـ يا شحّاري... إمّ جورج! ولك إيه إيه، هيدي أَنِي.

ترتفع زلغوطةُ أُمّ علي، في وسط السوق، وهي تقبّل أُمّ جورج وتبكي.

ـ هيدا جورج يا إمّ علي.. بعدِكْ فايقتيلو؟ هيدا جورج.

تقرّبني أمي من أمّ علي وهي تصرخ وتبكي: «هيدا جورج!» تُمْسك أُمُّ علي وجهي وتَمْسح دموعَها به وهي تقبّلني وتعدّل حجابَها:

ـ لَوْ علي بعدو عايش كان صار بعمرك. يا تِقْبِرْني يا جورج، رضّعتكم سوا.

ـ طوّلي بالك يا إمّ علي.. هالحرب كانت وسخة عَلْ الكل. علي وأبو جورج وخيّي ميشال هِنِّي يلّي طِلْعِتْ براسهم. راحوا رخيص.

ـ هيدا حسين. قرّبْ يا إمي، سلّمْ.

ـ يخزي العين! حسين هيك صار!؟ كِنِتْ بعدكْ بتعملها بتيابك لمّا عِلْقِتِ الحرب!

ـ أنا جورج.

ـ حسين.

ـ تشرّفْنا.

ـ ونحن كمان.

يثير اسمُ جورج حشريةَ حسين؛ فهو لم يَعتد سماعَه. وتَلفت انتباهَه سلسلةٌ ذهبيةٌ تدلّت من رقبةِ جورج، وتنتهي بصليبٍ يستقرّ على صدره. ترتجف يدُ حسين في يد جورج.

إنّه الأحد، الأول من كانون الأول. تنقطع طريقُ بيروت ـ الأرز بسبب تراكم الثلوج، فيضطرّ الاثنان إلى تقاسمِ غرفةٍ ذي سريرٍ واحد في أحد الشاليهات.

إنها الواحدة بعد منتصف الليل. يستيقظ جورج على صوت حسين يصارع لأخذ أنفاسه. أهي نوبةُ ربو؟!

يأخذ حسين دواءه من يد جورج، فيَلْمس اهتمامًا زاد قليلاً عن اهتمام شابٍّ بأحد أصحابه. يستغرب حسين تصرُّفَ جورج. يضغط جورج على يد حسين مشجِّعًا، فتسري رعشةٌ غريبةٌ في يد الأول لتنتقل خجلاً إلى عيني الثاني.

في لحظات الصمت والرهبة تلك، يعود الاثنان إلى حقيقتهما، إلى مشاعرَ مقفَلٍ عليها في سراديبَ عميقةٍ داخلهما.

ثلاثَ عشرةَ سنةً مرّت برمشة عين. سكنا معًا، وسافرا معًا، وكبرا معًا.

يستفيق جورج من أحلامه ليتذكر أنّه ترك حسين في البيت وحيدًا، متذرِّعًا بزيارة أحد الأقارب، ليشارك في تلك المظاهرة التي باتتْ أوّلَ ظهورٍ علنيّ للمثليين في لبنان. لم يُخْبر جورج شريكَ حياته بانتمائه إلى تلك المجموعة تفاديًا لقلق حسين عليه، وخوفًا من تأزم حالة الربو لديه.

ـ آلو.

ـ جورج، حبيبي، وَيْنك؟ عملْتِلَّك الپاستا وناطْرَكْ. ما تتأخّر. وليْك، جيبْ معك قنينة نبيذ لأنّو ما عادْ في عنّا. ودِقّ لمارك ذَكّرو بالعشا لأنّو أكيدْ بيكون ناسي. وكمان جيبْ معك....

ـ حسين، اسمعْني.

ـ شو!

ـ ضبّ اغراضَكْ وطْلاعْ لعند أهلَكْ عالجنوب!

ـ ٨ ـ

يُشْعل عامر السيجارةَ ولا يغيِّر جلستَه؛ فهو ما زال على الكرسيّ نفسِه يداعب شعرَ ذقنه الأبيض بأصابعَ ثلاث، ويراقب مربَّعَ النور الذي بدأ في تسلّق الحائط.

أَسَّسَ الطبيبُ النسائيّ عامر جابر هذه المجموعةَ التي تُدافع عن حقوق المثليين في لبنان منذ ثلاث سنوات، مع عدد من الشباب الذين ضاقوا ذرعًا بما يواجهه المثليون في لبنان.

في البدء ساعدتْه زوجتُه، وساندَهُ ولداهُ؛ وجميعُهم يَعْرفون عن ميوله المثلية. وكان عامر يتندّر أمامهم قائلاً: «مجتمع المثليين في لبنان عاقر، عمرو ما رح يِحْبَلْ بالحرية.» ولكنّه مع الوقت اكتشف أنّ مجتمعه ليس عنّينًا، وقد يَنْجح في إخصاب هذه الجمعية. صحيح أنّ هذا المجتمع ما زال مراهقًا، غير أنّه لم يعد يكتفي برعشات الحرية المسموحِ بها في النوادي الليلية والشواطئ والشوارعِ الخلفية لبيروت، بل إنّه مستعدٌّ إلى حدٍّ ما للمطالبة بحياةٍ أكثرَ إنسانيةٍ.

عملت المجموعةُ على نشر التوعية حول الأمراضِ المنقولةِ جنسيّاً ومرضِ السيدا، واكتسبتْ ثقةَ العديد من اللبنانيين وخاصةً المثليون الذين تكاتفوا حول تلك المجموعة.

ولكنّ تلكَ المظاهرة التي شارك فيها الستةُ، ممثِّلين مجتمعَ المثليين، ضد الحرب على العراق كانت خطوةً جريئةً عليهم تحمِّلُ عواقبها.

يَغْرق عامرٌ في بحر فرضيّاته؛ فقد فَتَحتْ تلك الخطوةُ الجريئةُ أبوابًا على المجهول:

هل سيأتيْ الدركُ للقبض علينا مثلما أخبرني أحدُ رجال الشرطة المثليين، وهو يَخْدم في مخفر [...] بعد أن اتصل بي سرّاً؟ أمْ أنّ الدولة ستتغاضى عن هذا العمل الهزيل، كتغاضيها عن نوادي المثليين الليلية في بيروت؟ أيكون قرارُ بقائهم هنا، طعْمًا سهلاً لرجال الشرطة، قرارًا صائبًا؟ هل ستنتشر قصةُ القبض عليهم بين المثليين كالنار في الهشيم، فينتظمون عفويّاً في مظاهرةٍ ثانيةٍ للضغط على الدولة من أجل إطلاق سراحهم؟ هل ستعي الحكومةُ اللبنانية أنها تحرِّض على العنف ضد نسبةٍ من اللبنانيين قَدَّرها البعضُ بـ ٢٣٪، عبر التسامح مع العنف الناجم عن رُهاب المثلية الجنسية؟ أَوَيدري المشرِّعون أنّ إدانة الميول الجنسية المثلية، وإطلاقَ سراح المعتدين على المثليين من دون عقاب، ليسا إلا رخصةً شرعيةً للتعذيب؟ وهل ستتحرك منظمةُ العفو الدولية وجمعياتُ حقوق المثليين في العالم والمجتمعُ الدولي لنَجْدتهم، أمْ ستتغاضى هذه جميعُها عن خَرْقٍ آخرَ لحقوق الإنسان تعوَّدوا تكرارَه في لبنان؟

ـ ٩ ـ

تَقْطع حركةٌ مبهَمةٌ أفكارَ عامر المتزاحمة.

يرتفع صوْتٌ غريبٌ أمام المبنى. يرفع عامر رأسَه، وتتسع عيناه رعبًا، ويدور نظرُه بين الخمسة مستفسرًا ومحاولاً التأكُّدَ من أنّ ما يسمعه ليس مِنْ نسج خياله وحده. يَسُود صمتُ المقابر من الجُحْرِ. تَطْرق خطواتٌ حذرةٌ بلاطَ الدرج. تضع سنا يدها على ركبة مارك وتشدّ كأنّها تشجِّع نفسَها، وتشرئبُّ رقبتُها لتسمع بشكلٍ أوضح.

يَشْعر مارك بفرحٍ غريب يداهمه: أتُراه سيصبح «مخلِّصَ» المثليين، فيَفْتَح لهم بابَ النور، ويقول لهم: «احملوا صلبانَكم واتبعوني،» مفتخرًا بالمجدِ الذي ستصنعه نقاطُ الدم من إكليل الشوك الذي وضعه المجتمعُ على رأسه؟

يقف جورج في وسط الغرفة ويدير رأسَه صوب الباب، والسيجارةُ في يده تشتعل رعبًا. يَهْمس سلمان من دون أن يبتسم.

ـ شكلُنْ وصلُوا. زلغطوا!

تزيد سنا من احتضان ياسر، الذي يكابر على نفسه كي لا يبكي، فتبكي سنا. يمرّ شريطُ صورٍ سريعٌ في رأس ياسر:

لقد كبرتُ، وكان عليَّ أن أغدو رجلاً. لكنّ أنوثتي كبرتْ معي. رَفَضَ صوتي العبورَ إلى عالم الرجال. يصفعني أبي على وجهي:

ـ بدّك يقولوا عن إبني خنثي؟

ويأتي ذلك اليوم. يضع أبي المسدسَ في رأسي:

ـ اعطيني رقمو لأخو الشرموطة يلّي كِنْت عَمْ تِحْكي معو، أو بقَوْصَكْ وبِخْلَصْ منّك ومن وسخك!

أحاول التملّصَ من قبضةِ أبي الحديدية على شعري. يرميني أرضًا ويركلني. أَنْظر بحنانٍ صوب الأرض التي تبتعد عني مسافةَ ثلاثةِ طوابق.

ـ مش رح خلّيكن تقتلوني. أنا رح زِتْ حالي.

ـ ياسر، كَبِّرْ عَقْلَكْ، نزالْ. ما عنّا غيرك، نزالْ.

ـ حلّي عني. لو كنتِ أمي عن جَدّ، ما كِنِتْ خلّيْتيه يَعْمِلْ فيِّ هيك.

صفرة طويلة.

ـ شو يا قَشْطة. بتنتاك؟

ألتفتُ صوبَ ذلك الشابّ في شارع الحمرا، وأَبْصقُ على وجهه. أتلقّى لكمةً على معدتي. أتقيّأ. يهرب.

ـ ياسر، اسمعْني. بحبك، وكِلّ شي، بس ما فيّ يشوفوني العالم معك. شو بيقولوا عني؟

يُكتَب لي أن أُرْفَضَ مرتين.

يرتفع صوتُ التصفيق الحادّ، ليصمّ الآذانَ في أرجاء المسرح الكبير. الأرض لا تسعني. يرشقون الوردَ عند أقدامي، ويطالبون بالمزيد. أنتشي، وأرقصُ لهم كما لم أرقصْ من قبل.

ـ ١٠ ـ

يعلو صوتُ حوارٍ هامسٍ أمام باب الغرفة الصغيرة. يَنْظر سلمان إلى مربّع النور الذي صُلِبَ على الحائط، ويَغْرق في تأملٍ كأنّه يصلّي للضوء.

يُطْرَق البابُ بدقاتٍ محمومة. صوتُ مَلاكِ الموت يأمرهم بالخروج. يتململون.

فجأةً يُخلَع الباب، ويَدْخل عشرةٌ من رجال الشرطة إلى الغرفة الصغيرة شاهرين مدافعَهم الرشّاشةَ في وجوه الستة. تقف سنا لتحمي مارك وياسر، فتتلقّى الضربةَ الأولى من كعب بندقية أحدهم على وجهها، فتقع أرضًا، لينهال عليها ثلاثةُ رجالٍ بالركل والشتائم. يصرخ ياسر ويقفز صوب النافذة. يمسك به أحدُهم من رقبته:

ـ حاج تصرّخْ أحسن ما قَوْصَكْ، وإخْلص منّك ومِنْ وسخك.

يُفْلت ياسر من قبضته ويقفز من النافذة، لاحقًا بمربّعِ النور الذي غادر الغرفةَ الصغيرة. يسود الظلامُ.

أَصْدر قاضي التحقيق في بيروت قرارًا ظنيّاً بحقّ كلٍّ من الطبيب عامر ج. (٤٤ عامًا) والمهندس جورج ف. (٣٨ عامًا) ومارك ح. (٢٧ عامًا) وسلمان أ.ش. (٢٥ عامًا) وسنا أ. من التابعية الفلسطينية (٢٤ عامًا)، وذلك لإقدامهم في تاريخ كذا وكذا على ممارسة اللواط والدعارة. كما لَقِي المدعوُّ ياسر ك. (١٨ عامًا) حتفَه حين رمى نفسَه من الطابق الثالث منتحرًا خلال عملية المداهمة. هذا وقد طلب قاضي التحقيق إنزالَ عقوبة الحبس لمدة سنة لكلٍّ منهم، وذلك عملاً بالمادة ٥٣٤ من قانون العقوبات اللبناني.

يستفيق سلمان من تخيُّله لنهايتهم على صوتِ الطرقةِ الأخيرة على الباب.

ـ رحْ إفتحْ... إنتبهوا.

يقول عامر وهو يأخذ نفسًا عميقًا، ويَنْهض ليفتح الباب. يَفْتح الباب. تقف امرأةٌ أربعينيةٌ تحمل ولدًا على يدها، وتُمْسك بآخر. تُطلّ من خلفها وجوهُ أربع بنات تتراوح أعمارُهنّ بين الحادية عشرة والعشرين. تضع الفتياتُ مناديلَ بيضاء لا تُظْهر إلاّ عيونَهنّ الكحيلة. تتزاحم الفتياتُ الأربع وهنّ ينظرن إلى الداخل. يتهامسن ويضحكن ويتزاحمن لرؤية الرعب في عيون الستة من خلف أمّهنّ. تعدّل المرأةُ الأربعينية منديلَها الأبيضَ الذي يخفي رأسَها ونصفَ وجهها:

ـ قِلّي، كَسَنَدِي، بيت أبو قاسم عبد الباقي بأيّ طابق؟

ـ عَلْ الأول.

ـ يسلّم ديّتاكْ.

يبتسم الطفلُ ذو العينيْن الزرقاويْن لعامر، ويمدّ يديْه صوبه كأنه يريد مغادرةَ حضن أمه لكي يَحْملَه عامر.

يُغْلق عامر الباب.

ـ قوموا روحوا ع بيوتكن. ما عاد إلها مَعْنى نضَلْنا هوْن.

ـ قَوْلَكْ مِشْ رَحْ يجوا؟

ـ عل القليلة مش اليوم.

بيروت

في العدد القادم:

- **ملف: الشباب والسياسة (١): المغرب**
- **قصص: فدوى القاسم، اياد البرغوثي...**
- **قصائد: ميلود لقاح، محسن أخريف،...**